في الأخلاق

أمام المرآة

للأديب الفكر الأستاذ حسين شفيق المصري

أرأيت القمر إذا تجلى كيف يبهرك منظره وكأنه قرص من الماس يسطع عليه نور كهربائي أبيض فيشبه به الشعراء الحسان ويخاطبونه كأنه وجه إنسان ؟

ليس هذا القمر يجتذب قلوب الشعراء وكفى فإن له قوة من جماله بها قلب البحر ؛ فلو رأيته وأنت على الشاطىء في وقت الجزر أو في وقت المد لرأيت عجباً يستهلك كل ما تحبه عيناك من مناظر الطبيعة والمناظر التي يبتدعها الناس.

وهل أجل من انحسار الماء عن الشاطىء وانكشاف ما بلى البر من قرار ؛ وذلك الضوء المنبعث من القمر باقي بساطه الفضي على الرمل وقد تجمع ماء اليم إلى وسطه عالياً كأنه يريد أن يقبل لتقبيل ذلك المخلوق السماوي البديع ؟

نعم للقمر قوة الجذب التي يكاد البحر يطير بها إلى السماء ، فكيف هذا الجذب ؟ وإذا كان بقوة فما واسطتها ؟ وهل بين القمر والبحر سبب يجتذبه إليه ؟

لاريب أن بينهما اتصالا وأن الاتصال عام يوحد الكواكب ، كما يجعلها والأرض منظومة متواصلة ولو لم تر مابين بعضها وبعض من واسطة هذا ، ولا أظنك تجهله وإن لم تدر ما كنهه وما قوامه إلا أنوهما ، وقد تسبق المعرفة بالشيء معرفتنا بالبرهان ولم يشك في أن الكون واحد متواصل الأجزاء ، أما عندك مرآة تنظر إليها من بعيد فترى فيها وكأنك وراء زجاجها ؟

فقل كيف تبصر صورتك في المرآة ، إن لم يكن بين عينيك وبينها سبب لاريب في أنه مادة ولو لم يقم على ماديتها دليل !

لانقل انعكاس ضوء ، فأنك غير مضيء فينطلق منك إلى المرآة شعاع أنور ينقل الصورة إليها ، وهب أنك حجرة حارة ، فكيف ينتقل حرها إلى ما حولها إن لم تكن الموجودات متماسكة وإن تباعدت ، متلاصقة وإن تفرقت ، متوحدة وإن تعددت بالعدد العظيم !

هذه الفتاة الحسناء تقف أمام المرآة ترى مثلها فيها ، بالشعر الأصفر ، والعينين السوداوين والجبهة الزهراء ، والخدين المغربين ، والعينين الآمرتين الناهيتين ، فلا يخطر ببالها إلا أنها ترى نفسها جميلة فتانة .

وهذا الشيخ المحدودب الشاحب الضئيل ينظر إلى المرآة ليرى هل بقى من دمه كثير ، وكم صار عدد تجاعيد وجهه ، وإلى أى حد وصل فى طريقه إلى الموت ، إن لم يكن مغروراً بالدنيا ، يتخيل شيخوخته شبابا ، ويحسب قبحه جمالا يستميل به الغانيات وليس يخطر بباله غير هذا أو ذاك .

ولكن ليس ذلك كل ما تقوله المرآة للفتاة والشيخ ، بل تقول لهما إن صورتها منبعثة منهما إلى ما حولها فأن لم يراها فى غير المرآة فليس المعنى أنها غير موجودة إلا فى المرآة ، بل صورتك ممتدة منك إلى المرآة وإلى الماء وإلى كل لامع ، وإلى غير اللامع من سائل وجماد من حائط وأرض ، من حديد وخشب ، ومن كل شىء ، ولكنها تظهر على شىء وتختفى فى شىء .

وما لك والمرآة ؟ انظر إلى هذه الروضة الخضراء وما فيها من شجر وعشب منسق ، وطير مختلف ألوانه ودواب كثيرة الأشكال ، ودر بعينيك فيما حولك لترى كل أولئك واسأل نفسك كيف ترى !

أخرج من عينيك شىء اتصل بهذه المرئيات ؟ أم امتدت من هذه المرئيات إلى عينيك أسباب ؟

لاهذا ولا ذاك ، ولكن الذى تظنه فيما حولك فضاء ، غير فضاء ، والكون كله واحد متواصل قريبه وبعيده ، متجاذب كما يجذب القمر ماء البحر ، وكما تجذب صورتك المرآة . .

وماذا أبقى الكون إلى الآن إلا أنه واحد متعدد الأجزاء متماسك وإن شئت فقل إنه متلاصق وذلك أن تعتقد أن تلك المادة المجهولة التى تسميها الأثير ، روح عام فى حى واحد هو الكون بكواكبه وما فيها من الموجودات من متحرك وساكن .

الله أكبر ، نعم إنه جل وعلا بث هذه القوة فى الفضاء الفسيح وكون منها هذه العوالم صغيرها وكبيرها ، ولا أدرى ماذا شغل بالى بها إلا أنى رأيت القمر على مرآة ، فتشاغلت بهذه الخواطر عن التفكير فى هذه الشيخوخة وما وراءها من الزوال ، وما للشيوخ وللمرايا والكواكب ، المرايا والكواكب متاع للفتيات والفتيان ، فى الشباب الغض والجمال الباهر ، وما فرغنا منه من اللهو واللعب والعوض على الله ؟